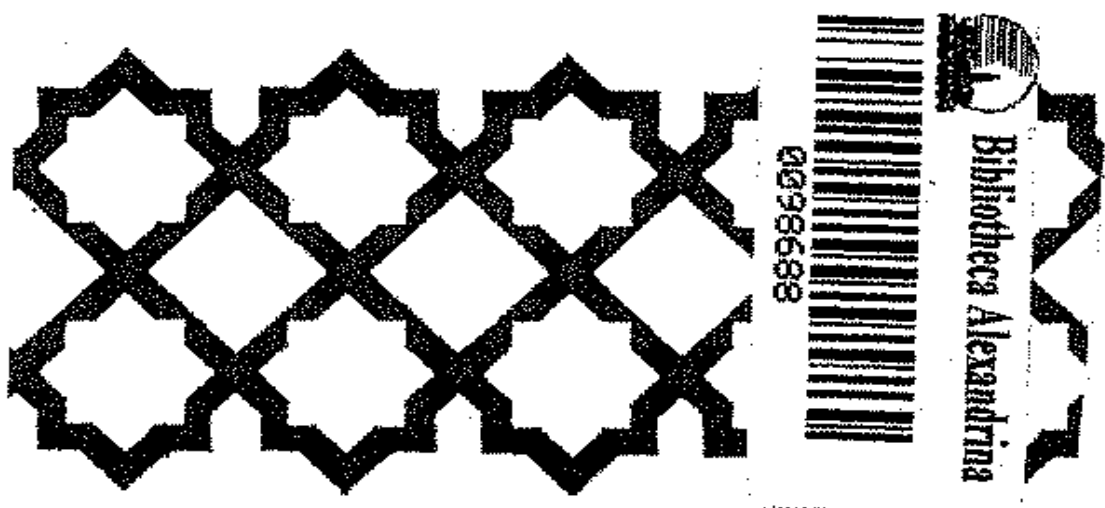


أبو الحسن علي بن الحسين الندوي

الاسلام في الغرب



مؤسسة الرسالة

الإسلام والغرب

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

مؤسسة الرسالة

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية حمدي وصالح
هاتف: ٢١٩٠٢٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب. ٧٤٦٠، بريقيا، بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الرسالة

جامعة اكسفورد من كبرى جامعات بريطانيا ومن أقدمها. فقد أنشئت قبل نحو سبعة قرون، ولا تزال تحتفظ بمكانتها وأهميتها إلى اليوم، يؤمها من يختارها من طلاب العلوم العصرية، وقد كانت خالية من وجود قسم للدراسات الإسلامية، أو مركز إسلامي، فأراد بعض أساتذتها أن يكون في الجامعة أو بجانبها مركز من هذا النوع يزود الراغبين في الدراسات الإسلامية بما يساعدهم في تحقيق رغبتهم في هذا المجال، وبذلك برزت فكرة الاستشارة في هذا الصدد والوصول إلى نتيجة هادفة.

جاءت الدعوة إلى سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسيني الندوي لزيارة اكسفورد، وللمساهمة في تأسيس مثل هذا المركز وكان سماحة الشيخ يترصد ويتمنى أن تتاح له فرصة يتحدث فيها إلى نخبة من قادة الفكر ورجال التوجيه والتربية في مكان رئيسي في الغرب في صراحة ودقة، ويفضي إليهم بحقائق قلما واجههم بها مسلم شرقي في بلد غربي، وكان يعتبر أكبر كرامة له وتوفيق أن يكون متبعاً - ولو مرة في عمره - لأسوة الرسول الأعظم ﷺ في رسائله التي أرسلها إلى ملوك العالم - وفي مقدمتهم إمبراطور الدولة البيزنطية الرومية هرقل الأول - يخاطبه فيها بالآية القرآنية «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (١).

فلما جاءته هذه الدعوة من مركز ثقافي موقر كجامعة

(١) آل عمران - ٦٤

اكسفورد رأى ذلك تحقيق أمنية وقرر أن لا يضع هذه الفرصة السانحة التي هيأها الله للدعوة.

ولما تحقق لسماحته أن موضوع إنشاء مركز إسلامي في اكسفورد موضوع غير مشبوه وأنه سليم وهادف، استجاب للدعوة، وقد كان سعادة الدكتور خليك أحمد نظامي - رئيس قسم التاريخ في جامعة على كره الإسلامية حالياً، ونائب رئيس هذه الجامعة سابقاً - وسيطا في توجيه الدعوة إلى سماحة الشيخ الندوي وهو صديقه ومن أكبر المؤلفين والباحثين في التاريخ الإسلامي، وقد درس الموضوع نجله السيد فرحان نظامي في جامعة اكسفورد، وكان مساهما في تحضير فكرة إنشاء المركز الإسلامي مع أساتذة الجامعة، في مقدمتهم الأستاذ D. G. BROWNING.

سافر سماحة الشيخ الندوي يوم ٢١/٢٢/ يوليو إلى انجلترا، وكان يرافقه كاتب هذه السطور، وبدأت الجلسات واستمرت إلى يوم ٢٤/ يوليو وانتهت على قرار

إنشاء مركز إسلامي في أكسفورد في مكان وهبته الجامعة
لمثل هذا المركز في وسط من كلياتها، ويكون المركز مركزاً
للدراستات الإسلامية على المستوى العالمي، ويكون
مستقلاً بأمرة لا يتصل بجامعة أكسفورد ولا بغيرها من
المؤسسات أو الحكومات أو الأحزاب إلا بصلة التعاون
العلمي والثقافي، ويكون تابعاً لمجلسه التأسيسي الذي
يختار ثلث أعضائه من رجالات العالم الإسلامي
المسلمين، أما الثلث الباقي فيعين بعضهم الجامعة
كممثلين لها ويختار بعضهم المجلس التأسيسي من غير
المسلمين. وتم الاختيار في المرحلة الأولى لأربعة
أعضاء، وهم سماحة الشيخ الندوي، والدكتور الأستاذ
خليق أحمد نظامي من الهند، والأستاذ بروهي وزير
الأمر الدينية السابق في حكومة باكستان، والأستاذ عامر
علي عمير الأمين العام لجامعة ستقوم في عمان.

وشكلت لجنة لموضع مشروع الدستور من السادة
الأستاذ بروهي والأستاذ نظامي والأستاذ عامر كما تم
تعيين الدكتور فرحان مدير المركز، والأستاذ الدكتور

براوننغ سكرتير المركز.

وقد كان الدكتور براوننغ طلب من الشيخ الندوي أن يعد بحثاً للاحتفال العام الذي سيعقد في ٢٢ / من يوليو تمهيداً لفكرة هذا المركز وإنارة للفكر العام، واقترح أن يكون موضوعه «الإسلام والغرب» وقد أعد الشيخ هذا البحث في آخر أيام رمضان حرصاً على أن ينتفع بهذه الفرصة أكبر انتفاع، ويحقق عن طريقه الأمانة التي خامرت نفسه من مدة طويلة وملكت عليه فكره، وأن يكون هذا المقال موضع دراسة وتفكير لعلماء الغرب وأساتذة الجامعات وقادة الفكر في أوروبا وأمريكا، فأعده على عجل في ثلاث لغات، الانجليزية والعربية والأردية.

وعقد الاحتفال في إحدى قاعات الجامعة يوم الجمعة في ٢٢ / من يوليو في الساعة العاشرة صباحاً وقد حضره لفيف من أساتذة الجامعة، والمشتغلين بالبحث والدراسات والعاملين في مجال العمل الإسلامي من

المسلمين، ولما انتهى الدكتور براوننغ من كلمة الترحيب وشرح الفكرة التي أعدها كتابياً، ترجى من سماحة الشيخ أن يتحدث لدقائق باللغة العربية قبل أن يقرأ بحثه بالنص الإنجليزي، فقد كان في الصفوف الأمامية عدد من المثقفين العرب والمشتغلين في السفارات العربية، ورجال السلك السياسي، فتقدم الشيخ وألقى كلمة باللغة العربية الفصحى، خلاصتها كما يلي .

قال بعد الحمد لله والصلاة على سيد الرسل خاتم الأنبياء ﷺ، سادتي: يسعدني ويشرفني أن أتحدث إليكم في هذه المناسبة الجميلة باللغة العربية التي كانت الوسيلة الوحيدة قبل قرون لنقل التراث العلمي القديم من علوم الحكمة والرياضة والطب من أسبانيا الإسلامية العربية إلى هذه الناحية من العالم، وهي لغة الإسلام الرسمية العالمية العلمية، وكان من أئمن الهدايا التي أنحف بها الأندلس والعالم العربي الغرب هو المنطق الاستقرائي (Indutive Logic) السذي حل محل المنطق القياسي والاستخراجي (Deductive Logic) الذي كان سائداً

على الغرب، وقد حول هذا الطريق من البحث الذي كان يعتمد على التجربة والملاحظة، التيار الفكري في الغرب برمته، وإليه يرجع الفضل في تقدم العلم والصناعة والعلوم التجريبية التطبيقية في أوروبا^(١)، وقد أتى علينا حين من الدهر كان الحكام والأساندة من الغرب يخاطبوننا في بلادنا الشرقية والإسلامية بلغتهم الانجليزية، وهما نحن الآن نخاطبكم اليوم في بلدكم باللغة العربية.

«وتلك الأيام نداؤها بين الناس»
وقد عرض البحث السذي أعده الشيخ وتلقاه
الحاضرون بانصات وعناية وتأمل، وتلته بحوث أخرى

(١) يقول ليون Gustave Lebon

«ينسب الناس إلى باكسون Francis Bacon قاعدة التجربة والملاحظة (المنطق الاستقرائي) وهما الأصل في أساس البحث العلمي الحديث، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هي من مبتدعات العرب».

أعدها الأستاذ يروهي والأستاذ عامر علي عمير، وانتهت
الجلسة في سكتة ووقار، ولذة وإعجاب، وتوجه
الحاضرون المسلمون إلى صلاة الجمعة في جامع قريب.

لقد كانت إقامة مندوبي هذا الملتقى في أبنية
الجامعة، وبخاصة كلية مرتن، وعقدت جلسات الملتقى
فيها، وأقيمت مآدب على شرف الضيوف كانت إحداها
من نائب رئيس الجامعة وثلاث من عمداء ثلاث كليات
للجامعة، وقد سنحت الفرصة لتبادل الآراء وتبادل
المعلومات بين المجتمعين في الملتقى والحاضرين في المآدب
وهم من الأساتذة أصحاب الاختصاصات العلمية في
الجامعة، وكانت الزيارة مفيدة، وامتازت بأن المشتركين
جميعاً نوهوا بضرورة تقريب أذهان الأجانب لفهم
الإسلام فهماً سليماً، ومن أصحاب الاختصاصات
الحقيقيين بصورة ممتازة عن بحوث المستشرقين، وأن
يكون المركز محل اهتمام من المسلمين وموضوع استفادة
الجامعة في تزويد طلبتها الراغبين في الدراسات
الإسلامية.

قضى سماحة الندوي ثلاثة أيام في جامعة أكسفورد ثم زار عدداً من بلدان انجلترا، منها لندن، وليدس، ولستر، وديوزري، وبولتن ونيبي تن، كما زار جلاسجو باسكات لندا، وخطب سباحة في أكثر هذه الأماكن في جوامعها ومراكزها الإسلامية على طلب من أهلها.

وانتهت الزيارة ٣١ / يوليو حيث عاد قافلاً إلى الهند ووصل إليها في أول أغسطس لياشر مسؤولياته في دار العلوم ندوة العلماء الذي هو رئيسها.

لقد كانت محاضرة الشيخ الندوي في جلسة افتتاح الملتقى محاضرة مؤثرة وقيمة، ألقت ضوءاً واسعاً على ضرورة اهتمام غير المسلمين لفهم الإسلام من مصادره الأصلية، وبمعرفة خصائص الإسلام الممتازة عن غيرها من الأديان السماوية، ولفت نظر الحاضرين إلى أن الأنجليز بصفة خاصة كانوا في موضع تسهل لهم معرفة الإسلام وخصائصه العظيمة التي كانت كفيلة بانقاذ الحضارة الغربية من اتجاهها غير السليم الذي عرض

العالم للنهاية الأليمة السريعة، ولكن الانجليز قصرُوا في ذلك مع توفر الوسائل وسنوح الفرص بحكم سيطرتهم في بقاع واسعة من العالم الإسلامي، كما قصر أبناء هذه البلدان الإسلامية في الحوار المؤثر المفيد مع الانجليز في مجال تقريب قيمة الإسلام ودوره القيادي البنائي. إلى عقولهم.

محمد الرابع الحسني الندوي
أمين «المجمع الإسلامي العلمي»
ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

٢٥ / شوال سنة ١٤٠٣هـ

الاسلام والغرب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه اجمعين .

سأدتى ! أشكركم قبل كل شىء على دعوتكم لىأى لحضور هذا الاحتفال الذى طلب للبحث فى موضوع منير مثير كموضوع «الاسلام والغرب» ويقوم فى رحاب جامعة «أكسفورد» (OXFORD) إحدى جامعات العالم الموقرة العتيقة المعروفة ، وذلك ينم عن روح الاستطلاع والريادة الفكرية فى المنظمين لهذا الاحتفال ، ويحمل أهمية رمزية لها مدلولها الكبير ، وأشكر الدكتور د - ج - بروننغ (Dr. D. G. Brownning) وزملاءه بصفة خاصة إذ وجهوا إلى الدعوة لحضور مثل هذه المناسبة والحديث فيها ، واللقاء مع السادة الفضلاء والطلاب الأعزاء .

سأدتى إن أول شعب وأول بلد من الشعوب والبلدان الأوربية اتصلا بالعالم الإسلامى فى أواخر

القرن الثامن عشر هو الشعب البريطاني، فقد بقيت بريطانيا الزعيمة الأولى للحضارة الغربية ورائدة التعليم الغربي والعلم والتكنولوجيا الغربية، مظهراً من مظاهر السقوة والانجازات الضخمة في عدد من الدول الإسلامية، لا سيما شبه القارة الهندية ومصر، ردة طويلة من الزمن، وبغض النظر عن طبيعة هذا البقاء وشرعيته - فهو أمر خارج من نطاق هذا البحث - كان من المعقول المتوقع - عقلياً ونفسياً - أن تعنى بريطانيا - حكومة وشعباً - بأقوى الديانات السائدة في مستعمراتها وأكثرها حيوية ونشاطاً وتأثيراً، وتهتم بدراساتها واكتشاف روحها وجوهرها، الديانة التي قامت في الماضي بأكبر دور ثوري وبنائي في تاريخ العالم الطويل الممتد على آلاف السنين، وخلفت طابعاً واضحاً خالداً على الحضارة الإنسانية والمجتمع الإنساني، بل يصح أن نقول: إنها أنقذت الحضارة الإنسانية والمثل العليا، من الإبادة الكاملة، ووهبتها قسطاً جديداً طويلاً من الحياة، إنها أنشأت قوة خيرة صالحة لمقاومة القوى الهدامة، ومكافحة الشر والباطل، وكانت ترى ذلك هدف وجودها، وغاية

ظهورها، إنها بدلا من أن تهلك الحرث والنسل - كما فعلت بعض القوى العسكرية والقيادات الجبارة الماضية - حولت تيار الحياة، وأرغمت التاريخ على أن ينحون نحواً جديداً، ولم يكن في ضلال جهودها وتضحياتها أن تقطع الحضارة البشرية أشواطها وتواصل رحلتها إلى الأمام فحسب، بل أصبح لها ذلك سهلاً ميسوراً، إن هذه الدعوة التي ظهرت في القرن السابع المسيحي وهذه الجهود العظيمة التي قامت بنشر عقيدة التوحيد على نطاق عالمي واسع لم يسبق له في التاريخ البشري مثيل، وأعادت إلى الإنسان كرامته واعتباره، وأرست دعائم المساواة والأخوة الإنسانية في العقول والنفوس من جديد وأثبتت أنها حقيقة بديهية لا تحتاج إلى تأمل عميق، انها أعادت إلى المرأة حقوقها وكرامتها الضائعة، وأقامت صلة قوية متينة بفاطر الكون، وعاطفة قوية مستحكمة لحب الله وخشيته، وعبادته واستعانه، وعقيدة راسخة، وإيماناً ثابتاً لم يوجد له بهذه السعة في تاريخ الديانات و الروحانيات نظير ولا مثيل، إنها أنشأت رغبة جامعة في الأعمال الخيرية والنظر إلى السلالة البشرية كعيال الله.

وإلى خدمتها ونفعها كعمل يتقرب به إلى الله، وأثارت
ظلماء ونهامة للعلم، وخدمته ونشره، وولوعاً بالكتابة
والتأليف، حتى تكسونت مكتبة عالمية من المستحيل
استعراضها، فضلاً عن الإحاطة بها، ويصعب العثور
على نظيرها في الشعوب الماضية والتاريخ القديم، هذه
كلها حقائق تاريخية لا يسع أي إنسان مثقف جحودها أو
الشك فيها.

كان كل ذلك يقتضي بطبيعة الحال أن تقوم في كل
بقعة من بقاع بريطانيا مراكز علمية وفكرية لدراسة
القرآن الكريم، والسيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف
صلاة وتحية - دراسة مجردة مخلصه، وأن توفر وسائلها
وإمكانياتها بأريحية وسخاء، وأن تشجع دراستها
الموضوعية (Objective) التي تتحرر من رواسب
الحروب الصليبية الملموسة وغير الملموسة، والأهداف
والمصالح السياسية والدعوية والدعائية، وتتحرر من
مركب الاستعلاء (Superiority Complex) الذي
يكون - في غالب الأحيان - نتيجة السيطرة السياسية،
والحكومة القوية، والذي يحول بين الدارسين وبين

التأملات الحيادية والدراسات المنصفة لثروة الشعوب والبلدان والمغزوة الضعيفة، العلمية، ومعتقداتها ومسلّماتها، والتقدير الصحيح لقيمتها وأهميتها، ولا أريد هنا أن أقلل من قيمة قسم اللغة العربية، وقسم الدراسات الإسلامية (Islamic Studies) في الجامعات، وقسم حضارة غرب آسيا -

(West Asian - Culture) وكلياتها، والخط من شأنها والاستهانة بقيمتها، ولكن القضية كانت أعمق من هذا وأوسع بكثير، وكانت تتطلب عمق النظر ورحابة الصدر، وسعة الأفق، والإخلاص والنزاهة، أكثر من الدراسات الخاضعة للمصالح المادية والاقتصادية.

ولكن الواقع أنه لم يكن في هذه المدة التي تمتد على أكثر من قرن، بين بريطانيا ومستعمراتها، بل بين الشرق والغرب، إلا اتجاه واحد (One Way Traffic) أعني أن الدول الغربية لم تعامل الدول الشرقية - حتى ولو كانت تملك ثروة عظيمة من المعرفة والحضارة - إلا معاملة المنح والإعطاء والتعليم والتثقيف، وتربية رجال يخدمون مصالحها، وصياغتهم صياغة خاصة، ولم تشعر بحاجة

إلى أن تقتبس منها شيئا، وتستفيد بدورها، وما من شك أن لضعف الشرق و«مركب النقص» (Inferiority Complex) الموجود فيه و«دهشة الفتح» التي أصيب بها، ولفقده الثقة بنفسه والاعتداد بذاته، تأثيرا في موقفه، ولم تكن فيه - إذ ذاك - إثارة من الشعور بالرسالة السامية، والشجاعة الايمانية، والروح الدعوية، التي دفعت في أوائل القرن السابع المسيحي إنسانا - بأبي هو وامي - كان يجلس على الحصير، في إحدى مدن الجزيرة العربية (التي كانت تسمى «يثرب» ثم أطلق عليها اسم المدينة) وقد أكرمه الله تعالى بمنصب النبوة والرسالة - أن يوجه إلى ملكين من أكبر ملوك الأرض حينئذ، كانا قد توزعا العالم المتمدن المعمور كعقار موروث، وهما امبراطور المملكة البازنطينية الرومة هرقل (٦١٠-٦٤١م) وكسرى إيران خسرو أبرويز الثاني (٥٦٠-٦٢٨م) رسائل تحمل إليهم دعوة صريحة مكشوفة إلى التوحيد الخالص والدين الحق، وجاءت في مفتتح الرسالة الأولى الآية 'لقرآنية الكريمة'.

«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم

أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (آل عمران - الآية ٦٤).

ومن الممكن جداً أن يكون يوم أملي هذه الرسائل لم توقد في بيته نار، ولم يدخل جوفه طعام، ولم يكن في بيته زيت للسراج (ولم يكن ذلك غريباً أو نادراً في منزله) وأن يكون - على العكس من ذلك - عبيد أولئك الملوك الذين وجهت إليهم هذه الرسائل و عبيد عبيدهم، وخدمة خدمهم مصابين بمرض التخمة، وتكون كلابهم المدللة تأكل من أطايب ما لا يتيسر لكثير من الناس المحترمين.

ثم لما وصل أتباع هذا الدين، والدعاة إليه إلى قادة جيوش هذه البلاد وعظماء الدولة، وأركان المملكة، وسألوهم: ما الذى جاء بكم؟ كان جوابهم الوحيد الحاسم:

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور

الأديان إلى عدل الإسلام^(١)».

إنني لا أدهش لقولهم: «ولنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده» إذ أنهم كانوا الدعاة الأولين إلى التوحيد، والمتزعمين الوحيدين للدعوة إلى الحرية الإنسانية، ولكنني أدهش لقولهم: «ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» إنني أدهش أن هؤلاء البدو الفقراء الذين كانوا في جهد من العيش، قد لا يجدون ما يقيم صلبهم ويسد رمقهم، كيف واجهوا تلك الشخصيات الحاكمة التي كانت تحكم مئات الآلاف من الأميال في الأرض والتي سبقت إليها وتكدست حولها وسائل الترف والبلذخ، بهذه الكلمة العجيبة القارعة: «إننا نخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا، فما كان ذلك الضيق، وماذا كانت تلك السعة ياترى؟» إن هذه الكلمة تدل على أنهم كانوا لا يعتبرون هؤلاء الملوك والأمراء أصحاب سعادة ونعمة تتحلب لها أفواههم، وتتقطع وراءها أنفاسهم، بل كانوا يعتبرونهم جديرين بالرحمة والرثاء، والاستهانة والازدراء،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٣٩، طبع بيروت

١٩٦٦م.

لأنهم كانوا - في نظرهم - أسرى المادية و النفس ، وعبيد العادات والتقاليد ، والمثل والأعراف المنحوتة المصطنعة ، عالة على أناس أقل منهم شأنًا ، وأحط منهم مكاناً ، وكانوا يرونهم كطائر مغرد جميل حبس في قفص من ذهب هو دنياه التي فيها يطير.

إن الشباب الأذكياء الطامحين الذين كانوا يرحلون من البلاد الشرقية الآسيوية - التي كانت تحت السلطة البريطانية ، أو تحت إدارتها - إلى الجامعات البريطانية للتعليم العالي ، كان النادر فيهم من يتصف بالاعتماد على الله والاعتداد بالذات ، الذي يبعث زملائهم وأتربائهم من الطلاب - إن لم يكن يبعث أساتذتهم ومربيهم - على دراسة الدين الذين ينتمون إليه وفهم الأمة التي يرتبطون بها ، ولا يدع لمعان الحضارة الحديثة وبريقها ، يخطف أبصارهم ، ويغلب ألبابهم .

وسنكون جاثرين ومقصرين إذا لم نذكر بهذه المناسبة بعض الشباب المثقفين بالثقافة العالية الذين اقتطفوا من المناهج الدراسية المقررة في الجامعات البريطانية السائدة في الهند ، والذين اتخذوا اللغة الانجليزية وسيلة لبدء

آرائهم وعرض أفكارهم ، ونالوا الاعجاب والثناء من أبناء هذه اللغة وأساتذتها ، واعترف عدد من علماء هذه البلاد وباحتياها بأنهم زادوا في معارفهم ، وغذوهم فكرياً ، كان من بينهم الباحث الأديب السيد أمير علي الذي يقول المستشرق آسبرن (Osborn) عن كتابه (Sprit of Islam) :

«إن هذا الكتاب يستحق الاعجاب والثناء ، ويدل أسلوبه على أن مؤلفه متمكن من اللغة الانجليزية تمكناً تاماً ، وقليل من أصحاب هذه اللغة من يجاريه في أسلوبه ، إن هذا الأسلوب برئ من تلك العيوب التي قل من يخلو منها من المثقفين الهنود بالثقافة الانكليزية ، فهنيئاً لمسلمي الهند أن يكون فيهم أفراد يحتلون هذه المكانة المرموقة» .

والشخصية الثانية هي شخصية الدكتور محمد إقبال ، الذي ترجم المستر نكلسن البروفيسور المعروف في جامعة لندن ، كتابه (أسرار خودي ورموز في خودي) إلى الانكليزية ، وقد ذكر في المهرجان المثوي الذي عقد بمناسبة مرور مئة سنة على وفاة الدكتور محمد إقبال في

ديسمبر عام ١٩٧٧م بـلاهور، تحت إشراف الحكومة الباكستانية، أن ما ألف حول الدكتور محمد اقبال، في مختلف لغات العالم من كتب ورسائل، لا يقل عددها عن ألفين، وفيها عدد كبير ألف باللغة الانجليزية.

وتحضرني في هذه المناسبة اضطراراً ذكرى زعيم الهند البعيد الصيت، القائد العصامي لحركة التحرير، ومشعل هذه الحركة في الجماهير، المسلم المتحمس الشجاع، وأديب الانكليزية البارع، والصحافي القدير، والخطيب المصقع الساحر(مولانا) محمد علي جوهر مدير(COMRADE)الصحيفة الانكليزية السيارة، الذي كان خريج جامعتكم أوكسفورد هذه، الذي كان يذكر مع اسمه دائماً (أكسن) «OXON» ولكن هؤلاء الأفراد القلائل ليسوا بالنسبة إلى أولئك الشباب الأذكياء أصحاب الصلاحية والكفاءات الممتازة، الذين يتجاوز عددهم الآلاف - الذين كانوا يرحلون من الهند إلى انكلترا للتعليم العالي، ويعودون منها بشهادات جامعية إلى الهند - إلا أفذاذاً لا يجاوز عددهم الأصابع، وبهذا الإجراء الذي كان في اتجاه واحد، لم يلتفت كلا البلدين

إلى الإسلام كما كان يتوقع منها، فلم تكن بريطانيا في جانب، حيث كان يفسد آلاف من الشباب المسلم للدراسة من مستعمراتها الآسيوية الواسعة، وفرنسا في جانب آخر، حيث كان يرد مئات من الشباب المسلم من بلدان شمال إفريقيا التي كانت تحت سلطتها وانتدابها، لم يكن لهما أن يعيرا الإسلام شيئاً من عنايتهم واهتمامهم، لأن هؤلاء الشباب الوافدين كانوا خلواً من ذلك الحماس والاعتقاد على النفس والروح الدعوية الثائرة التي كان يتمتع بها العرب الأميون في القرن السابع المسيحي، مع أن التفاوت الذي كان بينهم وبين بلاد الروم والفرس المتمدنة الراقية، كان أعظم وأوسع بكثير مما كان بين شباب الهند ومصر وشمال إفريقيا، وبين البلدان الغربية، فقد كانت عند هؤلاء الشباب فكرة عن الحضارة الغربية والرقى الغربي في بلادهم، ولم تكن بلادهم أحط شأنًا وأكثر تخلفاً من الحزيرة العربية في القرن السابع المسيحي.

إن الوضع الذي تقع مسؤولية على الفريقين لم يهيء فرصة للدراسة الإسلام والتأمل فيه من المستوى الذي

كان يستحقه ويليق به، والذي لا يستغني عنه مجتمع واقعي ناشئ، وحضارة واقعية ناشئة، وعندما بدأ العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر رحلتها السريعة، كانت لها الفرصة الذهبية لتستفيدا من الدين - الذي كان الإسلام ممثله الحي القوي - الأهداف الصحيحة لاستخدام العلم والطاقة، والعواطف النبيلة لخدمة الإنسانية، وأن تقتبسا منه القدرة على تملك زمام النفس وكبح جماحها، وأن تقتبسا منه منهجاً فكرياً، ونظرية عالمية لاحترام الإنسانية، والنظرة إلى الشعوب والأمم السامية على القومية الضيقة والوطنية العمياء، وأن تحتزوا من هذه المسابقة المجنونة بين البلدان والشعوب في التظاهر بالقوة والطاقة الذرية، التي أشرف بها العالم على الانتحار، والنار والدمار، وأن يقرع آذان سادة الشعوب والبلاد وقادة الحضارة النداء العلوي الخالد:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين» .
(سورة القصص الآية ٨٣).

إنه لو كان العلم والتكنولوجيا الحديثة يرافقهما خشية الله في السر والعلن، واحترام الإنسانية، ولو كانت الأهداف الكريمة الصالحة مقرونة بالوسائل القوية، والإمكانات غير المحدودة، ولو كانت عاطفة التعاون على البر والتقوى (التي لا يعطيها إلا الدين الحي القوي) مكان عاطفة المسابقة المجنونة، لكانت الدنيا غير الدنيا، ولكان العالم أجمع يعيش كأسرة واحدة مترابطة متوادة، بدلا من هذه الكتل الشرقية والغربية المتناحرة، التي تكاد تؤدي عداواتها وحزازاتها بالحضارة الإنسانية، بل الأجيال البشرية كلها إلى الهلاك الذريع، ولكن رقي العلوم المادية والتكنولوجيا الحديثة والسياسة، أخرج المنطلق من كل الضوابط والقيود، أحدث خطرا كبيرا لانتحار العالم بخنجره نفسه، كما يقول الدكتور محمد اقبال:

«إن هذا الفكر المارد الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون، انقلب اليوم برقاً خاطفا، ورعداً قاصفاً، يهدد عش الغرب ووكره، وحصنه ومعقله^(١)»

(١) «روائع اقبال» لصاحب المقال.

سادتي ! اننا لا بد أن نعترف ونقرر بكل صراحة أن حضارتنا الجديدة والقيادة الفكرية المعاصرة، أخفقت إخفاقاً ذريعاً في القيام في إعداد الأفراد الذين ينهضون بمسئوليات المجتمع الإنساني، وتربية السلوك الانساني إن العلم الحديث يستطيع أن يقتنص أشعة الشمس، ويعد أسرع الوسائل وأمنها لرحلة الفضاء، ويبلغ بالإنسان إلى القمر والكواكب، ويستخدم الطاقة الذرية في المشروعات الهائلة والإنجازات العظيمة، يزيل الفقر من البلاد، ويصل بالإنسان المعاصر إلى ذروة التطور والرفي، ويعلم شعباً جاهلاً بأسره، ويثقف أمة أمية بحذاقها، إن هذه الفتوحات والانتصارات لا يسع أي إنسان أن يقف منها موقف المنكر الجاهل، ولكن القيادة الفكرية الحاضرة عاجزة تماماً عن إنشاء أفراد صالحين مؤمنين، وهذه هي أكبر هزائمها وخسائرها، ولأجل ذلك تضيق جهود قرون وتذهب هباءً منثوراً، ويصاب العالم بالفوضى واليأس، ويزول اعتياده على العلم واقتناعه به، ويخاف أن تنطلق في العالم حركة رد فعل عنيفة وثورة مدمرة ضد العلم والمدنية، فقد حول الأفراد الفاسدون

هذه الوسائل والأدوات البريئة الصالحة، وسائل فاسدة ومعاول هدم وتدمير، انه لا يمكن أن تعد سفينة صالحة من ألواح منخورة فاسدة، فاذا ركبت بعضها مع بعض وصنعت منها سفينة، انقلبت رأساً على عقب وعادت صالحة، وأن يكون اللصوص وقطاع الطريق، لصوصاً وقطاع طريق، فاذا كونوا لهم هيئة أو جماعة فهي جماعة مقدسة من الحراس وأصحاب المسئولية، إن الأفراد الذين قدمتهم لنا القيادة الفكرية الجديدة فارغون من الإيمان واليقين، مجردون من الضمير الإنساني، محرومون من الحاسة الخلقية، جاهلون لمعنى الحب والإخلاص، غافلون عن كرامة الإنسان وشرفه ومكانته، إنهم لا يفهمون غير اللذة والجشاه ولا يعرفون غير القومية والوطنية، إن مثل هؤلاء الأفراد في نوعيتهم وصلاحياتهم، سواء كانوا حكاماً في الأنظمة الجمهورية، أو مسئولين عن النظام الاشتراكي لا يقدرّون أبداً على إيجاد مجتمع فاضل، وبيئة آمنة، وجماعة مؤمنة تخشى الله في السر والعلن، ولا يمكن الثقة بهم والاعتماد عليهم في مصير خلق الله، والأسرة البشرية الكريمة.

سادق! في مثل هذه المرحلة العصبية الدقيقة التي لا يتعرض فيها بلد واحد من بلدان العالم فحسب، بل تتعرض الحضارة البشرية بأسرها، لخطر الفناء والدمار، لا تُغني الجهود العادية المتحفظة، ولا يُغني العاملون في مجال التعليم والاصلاح على الدرب السليم، إنه لا يمكن أن ننكر فضلهم ودورهم في الظروف العادية، ولكن في مثل هذه الظروف غير العادية، التي بلغت فيها الحياة مفترق الطريق بين الموت والحياة، لا بد من جرأة خلقية وتضحيات جسيمة ومخاطرة ومغامرات على المستوى العالي، ولا بد من وجود أفراد عباقرة (Genius Men) أولئك الرجال الذين نزعوا الحضارة الانسانية في كل عصر من بين فكي الأسد، ساعوني أيها السادة إذا قلت: إن الغرب الذي ولد في الماضي شخصيات عبقرية نابغة في العلوم العمرانية والصناعة والعلم الحديث والسياسة ونظم الحكم، غيرت بجهودها خريطة العالم، واعترف العالم كله بفضلهم وتفوقهم ولم يرى بداً من الاستفادة من جهودهم وتجاربهم، إن هذا الغرب يخيم عليه منذ زمن طويل الجمود، إنه يخلو من تلك

الشخصيات العبقورية التي يفتقر إليها لقيادة الحضارة الإنسانية والمجتمع الإنساني الجديد، وتحويل وجهة العالم والتكنسولوجيا، من الهدم والتدمير إلى البناء والتعمير، وإيجاد القوة الخلقية التي تضبط النفس وتلجم الشهوة لحماية المجتمع من الفوضى والفساد، وتوحيد القوى المتصارعة والكتل المتناحرة، إنه يخلو من دور الأبطال وشجاعة الرسل والأنبياء، التي هو أحوج إليها من كل يوم مضى، لقد قال أحد العلماء المختصين في العلوم الغربية و الذي طالت إقامته في الغرب قبل أكثر من نصف قرن ، الدكتور محمد إقبال عن الحضارة الغربية والبيئة الغربية

«إن نور الحضارة باهر وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة، ولكن ليس في ربوعها من يمثل دور موسى، فيتلقى السداية والالهام ويبدد باليد البيضاء الظلام، ولا من مثل دور إبراهيم عليه السلام، فيحطم الأصنام ويحول النار إلى برد وسلام، إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب، وينمو على حساب العاطفة، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد، فلا يخرجون - حتى في

ابتكارهم وثورتهم - عن الطريق المرسوم والداثرة
المحدودة^(١) .

إنه لا بد - الآن - لحماية الحضارة الإنسانية وحماية
الغرب نفسه - الذي يعد بريطانيا فرداً كريماً محترماً من
هذه الأسرة ويحمل تاريخاً رائعاً من قوة الإرادة وعلو الهمة
والذكاء والطموح - من الجهود العلمية والفكرية الثورية
الواقعية المخلصة والجهود الجريئة المغامرة التي تنفخ في
هذه الحضارة المحتضرة والمجتمع المحتضر روحاً جديدة
من الحياة، وتسهلها من جديد للبقاء في العالم وتبرر
وجودها واستمرارها، ولا شك أن جامعات هذه البلاد
ومدارسها العلمية ومراكزها الفكرية، والمؤلفين وأصحاب
الأقلام وقادة الفكر، يستطيعون أن يقوموا في هذا المجال
بدور كبير، واعتقد أن مشروع «المركز الإسلامي» الذي
يدرس في هذه الجامعة والذي دعى له هذا المجلس،
يقوم في موضعه المناسب وموعده المناسب، وسيكون
حلقة في هذه السلسلة ومعلمة في الطريق، هذا هو الأمل

(١) «روائع اقبال» لصاحب المقال.

الذى ساقني - رغم ضعفي وزحمة أشغالي - إلى هذه
الجامعة، ودفعني للحضور في هذه المناسبة الكريمة.

وأخيرا أشكركم على هذا التكريم وهذه الثقة التي
وضعتوها في، وأدعو الله تعالى أن يوفق هذا المركز لأداء
مهمته على أحسن ما يرام، وأن يحقق تلك الآمال التي
علقها به القائمون عليه والمرحبون به والمقدرون له.

والله ولي التوفيق.

نطلب جميع نشراتنا من

الشركة المتحدة للتوزيع

ببيروت - شارع سوريا - بناية قنصلية، وجناحه
هاتفنا: ٣١٩٠٣٩ - ص.ب ٧٤٦ - بيفيا - بيروت

To: www.al-mostafa.com